# المديح النبوي بين التقليد والتجديد / لمساتٌ جماليةٌ وتجديديةٌ في قصيدة (قَدَرٌ حُبُّهُ)

## (للشاعر الجزائري محمد جربوعة)

أ. الزبير دردوخ
جامعة البويرة

**المديحُ النبوي الشريف بين التقليد والتجديد:**

**لو استعرضنا قصائدَ المديح النبوي الشريف منذ صدر الإسلام مع شاعر الرسول حسان بن ثابت رضي الله عنه إلى اليوم لوجدنا أنها تسير – من حيث الشكل – في اتجاه واحد ... لا يمكن الخروج عنه.**

**حتى إن الشاعر لا يمكنه أن يتصورَ قصيدةً في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في غير شكلها التقليدي، لعدة اعتبارات.**

**منها أن المديح النبوي مُرتبطٌ في ذهن الشعراء والمتلقين ارتباطا عضويا بالشكل العمودي الذي تكرس عبر القرون، باعتباره الشكلَ اللائقَ للمدح عموما، ولمدح الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه الخصوص.**

**وتَرتَّبَ عن هذا التصور أن كلَّ قصائدِ المديح النبوي يجب أن تسيرَ على نهج السابقين شكلا ومضمونا، ولا يجوز بأي حال من الأحوال تجاوزُ هذه النمطية لأنها في نظر الكثير من الشعراء والمتلقّين قد حازت على قصَب السبق زمانا، كما أنها حازت على الثناء النبوي الشريف شكلا ومضمونا، وهو ما أكسبها صفةَ القداسة التي لا يَجوز عُرْفًا تجاوُزها إلى غيرها من الأشكال، حتى إنَّ السياب وهو رائدُ الشعر الحر لم يكن يتصور أن قصيدةَ المديح النبوي الشريف يمكن أن تكونَ حرة، فاختار لها القالبَ (التقليدي = العمودي)، وأبعد من ذلك كتبها على بحر الطويل الذي يعد من دعائم الشكل التقليدي الذي تكرس عبر القرون منذ الجاهلية إلى اليوم، ولا يكاد الشاعر يتخلص فيه من الأساليب القديمة، إلا بشق الأنفس.**

| | | |
|---|---|---|
| **فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن** | | **فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن** |

**ومن ثم فإننا بصدد رصد ظاهرة جديدة في إيقاع قصيدة المديح النبوي الشريف من حيث الشكل والإيقاع، والصور، والبناء، والأسلوب، وما يتصل بذلك من جماليات في النظم على مستويات متعددة من مستويات القصيدة.**

**لذلك تحاولُ هذه المداخلة المتواضعة رصدَ العناصر الإيقاعية لقصيدة المديح النبوي الشريف من خلال النموذج المتميز الذي اخترناه = قصيدة (قَدَرٌ حُبُّهُ ...) (للشاعر الجزائري محمد جربوعة)) التي حازت قصبَ السبق في هذا المضمار وسجلت نقلة نوعية في فن المديح النبوي الشريف على مستويات مختلفة .**

**وكان الشاعر بدر شاكر السياب قد ألقى هذه القصيدة (مولد المختار)[1] بمناسبة المولد النبوي عام 1961 في أحد مساجد العراق[2]. وفيها يقول:**

| | | |
|---|---|---|
| **دموعُ اليتامى في دُجَى الليل تقطرُ** | | **ونَوْحُ الثكالَى عاصفٌ فيه يُصْفِرُ** |
| ..... | | ..... |
| ..... | | ..... |
| ..... | | ..... |
| ..... | | ..... |
| ..... | | ..... |
| ..... | | ..... |
| ..... | | ..... |
| ..... | | ..... |
| ..... | | ..... |
| **وأشرقتَ فاهتزتْ نواويسُ في الدُّجى** | | **وأوشكَ موتَى أن يَهبّوا ويُنْشَرُوا** |
| **نبيَّ الهدى .. يا نفحةَ الله للورَى** | | **و يَا خيرَ ما جادَ الزمانُ المُقَتِّرُ** |
| **إذا ما افتخرنَا كنتَ للفخرِ أولاً** | | **وإن جاءنا نصرٌ فذكراكَ تَنصرُ** |
| **ولولاكَ ما اندكَّتْ عروشٌ .. ولا هَوَى** | | **صليبٌ على كفَّيهِ كُنا نُسمَّرُ** |
| ..... | | ..... |

[1] - ديوان السياب
[2] - مجلة رابطة أدباء الشام 14 كانون الأول 2004

| | |
|---|---|
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| وَيَا مَولدَ المختار .. ميلادَ أمةٍ | وميعادَ بعثٍ .. أنت فيهَا مُقدَّرُ |
| ألاَ قَبْسَةٌ مِمَّا تَنفّسْتَ في الدُّجى | فنَحْيَا .. ويَنْهَدَّ الظلامُ المُسَوِّرُ |

**أمّا نازك الملائكة فقد فكرت في الموضوع بطريقة جديدة، ولكنها لم تُقنع أحدا بأن فكرةَ المديح النبوي (في شكلها الحرّ) يمكن أن تضيفَ قيمةً فنيةً جديدةً، أو يمكنُ تحققَ النجاحَ الجماهيريَ والفنَّي الذي ينتظره القارئ من قصيدة غير كلاسيكية في شكلها ولغتها وصورها وجوّها الإيحائي، فجاءت القصيدة باهتةً لا تكاد ترقى إلى مستوى النص العادي، فضلا عن تكون سابقةً في المديح النبوي الشريف ذي المقام العالي، تقول نازك في قصيدة لها بعنوان: (زنابق صوفية للرسول)[1]**

**وجاءني طائرٌ جميلٌ وحطَّ قربي..**

**وامتصَّ قلبي**

**صبَّ على لهفتي السكينَهْ**

**و رشّ هُدبي**

**براءةً ، رقةً ، ليونَهْ**

**وقلتُ يا طائري ، يا زبرجدْ**

[1] - ديوان نازك الملائكة

**من أين أقبلتَ**

**أيُّ نجم أعطاك لينَهْ**

**يا نكهةَ البرتقال، يا عطرَ ياسمينَهْ**

**وما اسمك الحلو ؟ قال : أحمد**

**وامتلأ الجوُّ من أريج الإسراء**

**طعم القرآن.**

**وامتدّ فوق إغماءةِ البحر ضوءٌ**

**من اسم أحمد..**

***

**ولولا أن الاسمَ الذي كتب هذه الأسطر كبيرٌ في عالم الشعر والنقد الحديث (نازك الملائكة) لقلت بأنها كلماتٌ لا ترقى لما يمكن أن نسميَه شِعرا، من حيث لغتُه، وأسلوبُه، ومن حيث صورُه، بل إن الركاكةَ تكاد تغلب عليه...**

**(و رَشّ هُدبي براءةً ، رقةً ، ليونة) ...(وما اسمكَ الحُلوُ ؟ قال: أحمد)**

**فأنت تحاول معي أن تجدَ شيئا من الشعر في هذه الكلمات المبتورة، ولكنك لا ترجعُ منها إلا بخيبة شعرية طافحة بالتكلّف وتَقَطُّع السياق (براءةً ، رقةً ، ليونة) ونثرية اللغة وبعدها عن الشعرية (وما اسمكَ الحُلوُ ؟ قال: أحمد).**

**ولولا ثلاثُ كلمات (القرآن – الإسراء – أحمد) لما تنبهتَ إلى أن النص يحكي عن الرسول صلى الله عليه وسلم دون أن يرقى ذلك إلى مستوى الشعرية المطلوبة من رائدة الشعر العربي الحديث. (... وإذا كانت الوظيفة الشعرية مهيمنة في لغة الشعر بالقياس إلى وظائف أخرى ثانوية، دون أن يعني ذلك أنها**

**تقتصر على الشعر وحده)[1]، فهذا يبرر دور الشعرية التي تعمل على قياس درجة الشاعرية وتحدد كيفية انبثاقها في الشعر بشكل مكثف[2].**

**والسببُ في رأيي يعود إلى أن الشاعرة لم تتفاعل مع الموضوع بشكل إيجابي، لأن الباعث لديها لم يكن باعثا داخليا، بمعنى أنها لم تحبَّ الرسولَ صلى الله عليه وسلم محبةً كافيةً لينعكسَ ذلك على نصّها، ولذلك كان التكلفُ سيدَ الموقف.**

**من خلال المثالين السابقين (السياب / ونازك) ندرك أن شِعرَ المديح النبوي الشريف بقيَ رهينَ النظرة التقليدية التي فرضتها التقاليدُ الفنية الرّصينة التي أرْسَتْها التجاربُ السابقة مشفوعةً بالقداسة الدينية التي أضفاها الثناء النبويُ الكريم على تلك التجارب بدءا بحسان بن ثابت رضي الله عنه حين قال له الرسول عليه الصلاة والسلام:**

**(اهْجُهُمْ أَوْ هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ)[3] ، فكان رضي الله عنه منافحا ومدافعا عن الإسلام ورسوله، إلى آخر يوم من حياته، وكان شعره أشد وقعا على الكفار من وقع السيوف:**

| | |
|---|---|
| عَدِمْنا خيلَنَا إنْ لم تَرَوْها | تثيرُ النَّقعَ موعدُها كَداءُ |
| يُبَارِيْنَ الأعنَّةَ مُصغياتٍ | على أكتافِها الأَسَلُ الظِّماءُ |
| تظلُّ جيادُنا مُتَمَطِّراتٍ | يلطِّمهنَّ بالخُمُرِ النِّساءُ |
| فإمَّا تُعْرِضُوا عنَّا اعْتَمَرنا | وكانَ الفتحُ وانكشَفَ الغِطاءُ |
| وإلاَّ فاصبِرُوا لجلادِ يومٍ | يُعِزُّ اللهُ فيهِ مَن يشاءُ |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |

[1] - ROMAN JAQOBSON : Essais de linguistique général, Edition Minuit, Paris, 1963, p218

[2] - لغة الشعر في ضوء الرؤية المفارقة، محمد كنوني. http://www.aljabriabed.net/n37_05kanuni.htm

[3] - صحيح البخاري 3041.

| | |
|---|---|
| وجبريلٌ رسولُ اللهِ فينا | وروحُ القدسِ ليسَ له كِفاءُ |
| وقالَ اللهُ قد أرسلتُ عبداً | يقولُ الحقَّ إن نفعَ البلاءُ |
| شهدتُ لهُ فقوموا صدّقوه | فقلتم لا نقومُ ولا نشاءُ |
| وقالَ اللهُ قد سَيَّرتُ جُنداً | هُمُ الأنصارُ عُرْضَتُها اللِّقاء |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| وأَحسنُ منكَ لم ترَ قطُّ عيني | وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النّسَاءُ |
| خُلقْتَ مُبَرَّأً منْ كلّ عيبٍ | كأنكَ قدْ خُلقتَ كما تَشَاءُ |

**وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة،**

| | |
|---|---|
| إنِّي تفرّسْتُ فيكَ الخيرَ أعرفهُ | واللهُ يعلمُ أنْ ما خانني البصرُ |
| أنتَ النَّبيُّ ومن يُحرمْ شفاعتَهُ | يومَ الحسابِ فقد أزرَى به القَدَرُ |
| فثَبَّتَ اللهُ مَا آتاك من حَسَنٍ | تثبيتَ موسَى ونَصْراً كالَّذي نُصِرُوا |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |

| | | |
|---|---|---|
| | | |

وكعب بن مالك:

| | | |
|---|---|---|
| سائلْ قريشاً غداةَ السَّفحِ من أُحدٍ | | ماذا لقينا ومَا لاقَوْا مِنَ الهَرَبِ |
| كنَّا الأُسودَ وكانوا النّورَ إذْ زَحَفوا | | ما إنْ نراقبُ من إلٍّ ولا نسبِ |
| فكمْ تركنا بها من سيِّدٍ بطلٍ | | حامي الذِّمارِ كريمِ الجدِّ والحسبِ |
| فينا الرَّسولُ شهابٌ ثمَّ يتبعُهُ | | نورٌ مضيءٌ له فضلٌ على الشُّهبِ |
| الحقُّ منطقُهُ والعدلُ سيرتُهُ | | فمن يُجبْهُ إليه ينجُ منْ تَبَبِ |
| نَجْدُ المقدَّمِ ماضي الهمِّ معتزمٌ | | حينَ القلوبُ على رجْفٍ من الرُّعَبِ |
| يمضي ويذمُرُنا من غيرِ معصيةٍ | | كأنَّهُ البدرُ لم يُطبعْ على الكَذِبِ |
| بَدَا لنا فاتَّبعنا نصدِّقُهُ | | وكذَّبوهُ .. فكنَّا أسعدَ العَربِ |

وغيرهم من شعراء الدعوة الإسلامية، رضي الله عنهم. فهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه يمدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ويدافع عن الدعوة الإسلامية فيقول:

| | | |
|---|---|---|
| ألمْ ترَ أنَّ اللهَ أبلَى رسولَهُ | | بلاءَ عزيزٍ ذي اقتدارٍ وذي فضلِ |
| بما أنزلَ الكفَّارَ دارَ مذلَّةٍ | | فلاقَوْا هواناً من إسارٍ ومن قتلِ |
| فأمسَى رسولُ اللهِ قدْ عزَّ نصرُهُ | | وكانَ رسولُ اللهِ أُرسلَ بالعدلِ |
| فجاءَ بفرقانٍ منَ اللهِ منزلٍ | | مبيَّنةٌ آياتُهُ لذوي العقلِ |
| فآمنَ أقوامٌ بذاكَ وأيْقنوا | | فأمسَوْا بحمدِ اللهِ مُجتمعي الشَّملِ |
| وأنكرَ أقوامٌ فزاغتْ قلوبهمْ | | فزادهُمُ ذو العرشِ خبلاً على خبلِ |
| وأمكنَ منهمْ يومَ بدرٍ رسولَهُ | | وقوماً غِضاباً فعلُهم أحسنُ الفعلِ |

**وكعب بن زهير في القصيدة الشهيرة بالبردة الشريفة التي يقول فيها:**

| | |
|---|---|
| **بَانَت سُعادُ فَقَلبِي اليَومَ مَتبُولُ** | **مُتَيَّمٌ إِثرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ** |
| **إِنَّ الرَسولَ لَنورٌ يُستَضاءُ بِهِ** | **مُهَنَّدٌ مِن سُيوفِ اللَهِ مَسلولُ** |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| **أُنْبِئتُ أَنَّ رَسولَ اللَهِ أَوعَدَني** | **وَالعَفْوُ عِندَ رَسولِ اللَهِ مَأمولُ** |
| **مَهلاً هَداكَ الَّذي أَعطاكَ نافِلَةَ الـ** | **ـقُرآنِ فيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفصيلُ** |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| **في عُصْبَةٍ مِن قُرَيشٍ قالَ قائِلُهُم** | **بِبَطنِ مَكَّةَ لَمّا أَسلَمُوا زُولُوا** |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |

**ومن حذا حذوهم من شعراء المديح النبوي الشريف الذين أوقفوا شعرهم على مدحه صلى الله عليه وسلم كالبوصيري، وما نُسج من روايات حول قصيدته الشهيرة التي يقول فيها:**

| | |
|---|---|
| أمِنْ تذَكُّرِ جيرانٍ بذي سلمِ | مزجتَ دمعاً جرى من مقلة بدمِ |
| أمْ هبَّتِ الريحُ من تلقاءِ كاظمةٍ | وأوْمَضَ البَرْقُ في الظلْماءِ مِنْ إضَمِ |
| فمَا لِعينيكَ إنْ قلتَ اكفُفَا هَمَتا | ومَا لِقَلْبِك إنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ يَهِمِ |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| محمدٌ سَيِّدُ الكَوْنَيْنِ والثَّقَلَيْـ | ـنِ وَالفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ |
| نَبِيُّنَا الآمِرُ النَّاهِي فَلاَ أَحَدٌ | أَبَرّ فِي قَوْلٍ لَا مِنْهُ وَلَا نَعَمِ |
| هُوَ الحَبِيبُ الذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ | لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الأَهْوَالِ مُقْتَحَمِ |

**وأحمد شوقي وقصائده المدحية على نهج البردة التي يقول فيها:**

| | |
|---|---|
| رِيمٌ على القاعِ بين البَانِ والعَلَمِ | أَحَلَّ سفْكَ دَمِي فِي الأَشهُرِ الحُرُمِ |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| مُحَمَّدٌ صَفْوةُ البارِي، ورَحْمَتُه | وبُغيَةُ اللّهِ مِن خَلْقٍ ومِنْ نَسَمِ |
| سَنَاؤُه وَسَنَاهُ الشمسُ طالِعَةً | فالجِرْمُ في فلكٍ، والضوءُ في عَلَمِ |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |

| | |
|---|---|
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ونودِيَ اقرأْ .. تَعالَى اللهُ قائلُها | لَمْ تَتَّصِلْ قبلَ مَنْ قيلتْ له بفمِ |
| هناكَ أَذَّنَ للرحمنِ، فامتلأَتْ | أَسماعُ مكَّةَ مِن قُدسيّة النَّغمِ |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |

والهمزية التي يقول فيها:

| | |
|---|---|
| وُلِدَ الهُدى فَالكائِناتُ ضِياءُ | وَفَمُ الزَمانِ تَبَسُّمٌ وَثَناءُ |
| الروحُ وَالمَلَأُ المَلائِكُ حَولَهُ | لِلدينِ وَالدُنيا بِهِ بُشَراءُ |
| وَالعَرشُ يَزهو وَالحَظيرَةُ تَزدَهي | وَالمُنتَهى وَالسِدرَةُ العَصماءُ |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |

| | |
|---|---|
| نُظِمَت أَسَامِي الرُسْلِ فَهِيَ صَحيفَةٌ | فِي اللَوحِ وَاسْمُ مُحَمَّدٍ طُغَرَاءُ |
| وَحَديقَةُ الفُرقانِ ضاحِكَةُ الرُبا | بِالتُرجُمانِ شَذِيَّةٌ غَنّاءُ |
| وَالوَحيُ يَقطُرُ سَلسَلًا مِن سَلسَلٍ | وَاللَوحُ وَالقَلَمُ البَديعُ رُواءُ |
| اسمُ الجَلالَةِ في بَديعِ حُروفِهِ | أَلِفٌ هُنالِكَ وَاسمُ طَهَ الباءُ |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |
| ..... | ..... |

**وغيرهم كثير كثير....**

**ومن خلال ما سبق من الأمثلة تأكدت لنا حقيقةُ رسوخ النظرة التقديسية التي طبعت مخيلة شعراء المديح النبوي، وكأن هذا الفنَّ لا يمكن أن يقالَ في شكل غير الشكل (التقليدي =العمودي) وقد تأكدت هذه الحقيقة حتى بعد ظهور ما يسمى بحركة الشعر الحر، التي كسرت القواعدَ الشعرية المتعارفَ عليها منذ العصر الجاهلي إلى منتصف القرن العشرين تقريبا، خاصة في الجانب الشكلي، حيث لم نسجل سوى محاولات قليلة للشعراء المعاصرين ممن كتبوا قصائد المديح النبوي في الشكل الحر، ولكنها لم تحظَ باهتمام النقاد والقراء ووسائل الإعلام كما حظيت به قصيدة (قَدَرٌ حُبُّهُ... للشاعر الجزائري محمد جربوعة)[1] وهي القصيدة التي نالت قصب السبق عربيا ومحليا حيث اختيرت كأحلى قصيدة في مسابقة عربية كبرى، وأثنى عليها كبار النقاد، وقامت عدةُ قنوات تلفزيونية ببثها لعدة أشهر، كما أنها أعادت بثَّ آراء لجنة التحكيم عدة مرات، مما جعلها من أشهر القصائدِ المكتوبة على الشكل الحر، وبذلك سجلت انعطافا تاريخيا لكونها فرضت نمطا جديدا في الشكل، وأعطت له الشرعية التي كان يفتقدها في فن المديح النبوي الشريف[2].**

[1] - انظر القصيدة في الملحق.
[2] - جاء في تقديمها ما يلي:

***

**حسن الابتداء وبراعة الاستهلال[1]:**

**من توفيق الشعراء قديما وحديثا أن يكون افتتاح القصيدة موفقا إلى حد بعيد لذلك أفرد النقاد مبحثا هاما في براعة الاستهلال، وأولوه عناية خاصة، ذلك لأن براعة الاستهلال تضع (لمتلقي = المرسل إليه) في المكان المناسب والظرف المناسب لتلقي الخطاب. لذلك قال .....**

**ولم يعد الأمر مقتصرا على الشعر وحده بل تعداه إلى التقارير الإخبارية التي تجعل من شروط الخبر الناجح، براعة الاستهلال وتوافق الصورة البصرية مع التعليق على الخبر.**

**ومن أمارات التوفيق في هذه القصيدة براعة استهلالها التي تُوافق موضوعَ القصيدة وهو المديح النبوي الشريف، لذلك كان الاستهلال مناسبا تماما:**

**طبشورةٌ صغيرةٌ**
**ينفخُها غلامْ**
**يكتبُ في سبورةٍ:**
**"الله والرسولُ والإسلامْ"**

***

نشرت هذه القصيدة في ديوان "لماذا نحبه؟"، وهو مبادرة أدبية فنية أطلقتها قناة المستقلة في ربيع 2008، وطلبت فيها من الشعراء العرب إجابة فنية شعرية على سؤال الحب، حب الأجيال المتعاقبة من المسلمين لخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم.

صدر الديوان لاحقا عن دار المنهاج في جدة، لصاحبها عمر سالم باجخيف، متضمنا خمسا وأربعين قصيدة لحشد كبير من أشهر الشعراء المعاصرين الأحياء، منهم شاعر العرب الدكتور محمد نجيب المراد، والدكتور عبد الرحمن العشماوي، والدكتور عباس الجنابي، والدكتور عائض القرني، والدكتور غازي القصيبي، وآخرون.

قصيدة الشاعر الجزائري محمد جربوعة لقيت ثناء عاطرا من النقاد والشعراء على حد سواء، وعدها بعضهم من أجمل ما قيل في حب خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم قديما وحديثا.

وفي أبريل 2010 ألقى الدكتور محمد نجيب المراد هذه القصيدة الجميلة بصوته، فأبدع في أدائها، وبدت منه موهبة قليل نظيرها في الإلقاء.

وبذلك اجتمع الجمال الاستثنائي في أبيات القصيدة وصورها، والجمال الاستثنائي في العرض والإلقاء، وتكونت منهما هدية نادرة بديعة يسعد بتداولها عشاق الشعر العربي الأصيل.

يوجد تسجيل للقصيدة في المكتبة المرئية في موقع قناة المستقلة: www.almustakillah.com

ويوجد تسجيل لها في موقع قناة المستقلة في شبكة اليوتيوب: www.youtube.com/almustakillahtv

[1] - حُسْنُ الابتداءِ: هوَ أنْ يَجعَلَ المتكلِّمُ مَبْدَأَ كلامِه عذْبَ اللفظِ، حَسَنَ السَّبْكِ، وصحيحَ المعنى. فإذا اشْتَمَلَ على إشارةٍ لطيفةٍ إلى المقصودِ سُمِّيَ براعةَ الاستهلالِ.

لقد اختصرَ الشاعرُ في هذه الاستهلال الوجودَ كُلَّه، وأحالَ القارئَ على المرجعية التي يتحدث عنها، ورسم لنا صورةَ بصريةً عميقةَ الدلالة، للانطلاق من عوالم الشعرية البسيطة (طبشورةٌ صغيرةٌ .. ينفخُها غلامْ .. يكتبُ في سبورةٍ...) إلى كليات الحقائق الثابتة في عقيدة المتلقين (الله والرسولُ والإسلامْ).

وإذا كانت الخيلُ تُعرف بالصهيل صفاتُها، فإن الشاعر محمد جربوعة، قد جعلنا نقرأ القصيدةَ من خلال هذ المقطع الأول الذي أبانَ عن فارس مغوار، ركب فرسا أصيلا، منطلقا بها يصول ويجول في سماء القصيدة الذي لا تحده الحدود والجغرافيا.

وهذا الاستهلال البارع لا يحسنه إلا القليل من الشعراء، ذلك لأنه يحتاج إلى قوة خيال، ووضوح رؤيا، وجمال عبارة وهي العناصر التي نلمسها في هذا الاستهلال الذي جمع كل حسنات الشعر.
وتأمل معي قوله:
(طبشورةٌ صغيرةٌ..
يَنفخُها غلامْ)
أليست هذه الصورة البصرية شبيهة بالانفجار الأعظم وبداية الخلق؟
هكذا أتخيلها !!

ولعلك توافق أن هذا الشيءَ الصغير (طبشورةٌ صغيرةٌ .. ينفخُها غلامْ) قد تحولت جزيئاته إلى فضاء أرحب تماما كما بدأ الانفجار الأعظم الذي نتج عنه الكون ؟!!

وسترى من خلال بناء هذه القصيدة وتكاملها كيف أنها تشبه في توسعها توسعَ الكون، وفي تفاصيلها تفاصيل الوجود، فمن الطبشورة الصغيرة والغلام اتسعت حركة الكون، واتسع معها مجال الإدراك، ليدلك على (الله والرسول والإسلامْ)..

وهكذا تنفتح الدلالات، ويتسع المعنى...

فاتساع المعنى دل عليه فعل النفخ في (طبشورة صغيرة)، وتأمل معي لفظ (طبشورة) الدال على التصغير والتأنيث، وهذا من لوازم الشاعر الذي يختار اللفظ الأكثر تعبيرا عن المعنى والأكثر تأثيرا في المتلقي، ولا شك أن (طبشورة صغيرة) أكثر تعبيرا عن المعنى من ((طبشور صغير)) أو (طبشورة كبيرة)، ذلك لأنها تتناسب ولفظ (غلام) الدال على الفتى الصغير أيضا، فالتناسب واضح في اختيار الألفاظ الدالة على المعنى...

وبعد هذا الألفاظ والدلالات الصغيرة (طبشورة / غلام / سبورة) تأتي وظيفة هذه الأشياء الصغيرة التي تنتج عنها المعاني الكبيرة (اللهُ والرسولُ والإسلامْ)

تأمل معي أن هذه الألفاظ كلها ذات وظيفة شعرية، وليس فيها حشو أو كلام لامعنى ولا وظيفة له، بل هي كلها تتآلف لترسم لك الصورة البصرية والحسية التي تجعلك ترى وتتخيل، وتتفاعل مع النص، وهذه إحدى سمات الأدب الرفيع الذي يشدك مبناه ويؤثر فيك معناه، ويجعلك تقتنع بشكله ومضمونه.

وتأمل معي جمالية التصوير وحركته الفنية، وعلاقته بالمعنى المراد تبليغه للمتلقي: (طبشُورةٌ صغيرةٌ .. ينفُخُها غلامْ ..)

فالغلام صغير .. ينفخ طبشورة صغيرة = فيه تناسب موضوعي:

في اللفظ = كلمتان مقابل كلمتين

ولماذا

في المعنى = كلمات قليلة مقابل معان كثيرة وعميقة وهذا ما يسمى بالتكثيف[1]

في المقطع الصوتي:

(متَفْعلن متَفعلن .. مُفْتَعِلن فَعُولْ = //0//0 //0//0 .. /0///0 //00)

وتأمل معي الهدوء الذي يغشاك وأنت تنطق هذه العبارة:

(طبشُورةٌ صغيرةٌ ..

ينفُخُها غلامْ ..

يكتب في سبورةٍ.. )

فكل شيء فيها يوحي بالسكينة والهدوء، حتى إن حروف الهمس[2] في هذه العبارة:

(ش ة ص ة ف خ ه ك ت ف س ة) ساهمت في صناعة هذه السكينة والهدوء.

ثم بعد ذلك تأمل معي هذه العبارة وتأمل حروفها ومعناها.

(الله والرسول والإسلامْ..) فيها ثلاثة حروف فقط من حروف الهمس (ه س س)

أما بقية الحروف فليست مهموسة وعددها سبعة عشر حرفا (17)

[1] - التكثيف في الشعر هو التعبير عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة.

[2] - الهمس هو استمرار خروج الهواء عند النطق بالحرف مع خفاء في الصوت، وحروف الهمس عشرة وهي: (ح. ث. هـ. ش. خ. ص. ف. س. ك. ت)

وبالملاحظة يتبين لك أن هذا المعنى كبير وعميق، ولكنه يختلف في إيقاعه ووقعه عن العبارة السابقة، وهو شبيه كما سبق بالانفجار الأعظم، فما الذي أكسبه هذا التباين مقارنة بالعبارة السابقة التي توحي بالهدوء والسكينة.

لاشك أن المعاني السامية التي توحي بها الألفاظ (الله والرسول والإسلامْ..) هي التي أحدثت هذا الفرق المتباين بين العبارة الأولى والثانية، وفضلا عن ذلك ساهمت حروف الهمس في رسم هذا التباين بين العبارتين، كما كان للخيال دوره البارز في تعزيز هذا الإيقاع المتباين بين العبارتين، فمن ذرات الغبار المتطاير من الطبشورة الصغيرة والغلام الصغير وفعل الكتابة:

(طبشُورةٌ صغيرةٌ ..
ينفُخُها غلامْ ..
يكتب في سبورةٍ )

انتقل الشاعر من هذا العالم الصغير والصغير جدا إلى العالم الأعظم:

(الله والرسول والإسلامْ..)

لتكتشف أن الشاعر قد حشدَ جيوش المحبة للإجابة عن السؤال المطروح في العنوان (لماذا نحب الرسول محمدا عليه الصلاة والسلام)

يُحبُّهُ الغلامْ..
وتهمِس الشفاهُ في حرارةٍ..
تحرِقُها الدموع في تشهّد السلامْ

ومن خلال هذه المقدمة تنفتح الدلالات مع كل صورة ومشهد ومقطع شعري، حيث يرسم الشاعر بالكلمات والمقاطع مشاهد مختلفة ومؤتلفة عن هذا الجو الروحاني المشحون بالحب، لترتسم أمام القارئ المشاهدُ المختلفة المتآلفة لتكوّن صورة ومشهدا كاملا بعناصر الطبيعة في تفاعلها مع بعضها وتفاعل الإنسان معها:

( تخرج من شفافه الحروفُ في بخارها
تختال في تكبيرة الإحرامْ) !!
.....
(تُحبُّهُ صغيرة من القوقازِ
في عيونها الزرقاء مثل بركةٍ
يسرح في ضفافها اليمامْ) !!
.....

**(يُحبُّهُ الحمام في قبابهِ**
**يطير في ارتفاعه الأذانُ في أسرابهِ**
**ليدهشَ الأنظارْ)**
.....

**ويمكنك تتبع بقية المقاطع التي يرسمها الشاعر بعناية فائقة من أبسط الأشياء حتى الحيوان والنبات والجماد، لتكتشف معه جمال هذا العالم المحب لشخصية هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.**

**يُحبُّهُ الغلأم ... / تُحبُّهُ الصفوف في صلاتها .../ تُحبُّهُ صبيةٌ ... / يُحبُّهُ مزارعٌ .../ تُحبُّهُ الصحراءُ في رمالها ..../ يُحبُّهُ المُؤْتمُّ ... / يُحبُّهُ الإمامْ... / تُحبُّهُ صبيةٌ... / تُحبُّهُ فلاّحة ... / يُحبُّهُ مُوَلّهٌ... / تُحبُّهُ صغيرة من القوقازِ.../ يُحبُّهُ مشرّد ... / تُحبُّهُ أرملةٌ .../ تُحبُّهُ تلميذةٌ / يُحبُّهُ الحمام في قبابهِ... / تُحبُّهُ منابرٌ ... / يُحبُّهُ من عبَدَ الأحجارَ في ضلالهِ... / يُحبُّهُ من يُكثر الأسفارْ.../ وشاعرٌ يُحبُّهُ .../ يُحبُّهُ الثوارْ .../ تُحبُّهُ صبيةٌ ... / تُحبُّهُ قبائلٌ .../تُحبُّهُ الصحراءُ في رمالها... / تُحبُّهُ القلوبُ في نبضاتها ... / تُحبُّهُ الزهور والنجوم .... / يُحبُّهُ الجوريّ والنسرين والنوارْ... / يُحبُّهُ النخيلُ ..... / يُحبُّهُ الهواء ..... تُحبُّهُ البهائمُ العجماء في رحمتهِ.... / يُحبُّهُ الكفارْ لكنهم ..../ تُحبُّهُ ... يُحبُّهُ ... / نحبهُ لأنه ... / ...**
***

**وما قيل عن حسن الابتداء وبراعة الاستهلال، يمكن أن يقال أيضا عن براعة الانتهاء وحسن الختام، و يا لها من خاتمة رائعة تلخص لك كل هذه المشاهد في مقطع بسيط لفظا ومعنى، وليس ثمة أبلغ من هذه الخاتمة وهذا الإقناع القلبي الذي بنيت عليه القصيدة من أولها إلى آخرها. والكلام إذا صدر من القلب وصل إلى القلب:**

**نحبه لأنه بجملة بسيطة:**
**من أروعِ الأقدار في حياتنا..**
**من أروعِ الأقدارْ !!**
**ونحن في إسلامنا عقيدةً**
**نسلّم القلوبَ للأقدارْ !!**
***

**انظر القصيدة في الملحق[1]**

[1] - قدرٌ حبُّه .. ولا مفرَّ للقلوب
***

للشاعر الجزائري محمد جربوعة
***

طبشورةٌ صغيرةٌ
ينفخها غلامْ
يكتب في سبورةٍ:
"الله والرسول والإسلامْ"

يُحبُّهُ الغلامْ
وتهمِس الشفاهُ في حرارةٍ
تحرِقُها الدموع في تشهّد السلامْ

تُحبُّهُ الصفوف في صلاتها
يُحبُّهُ المُؤْتمُّ في ماليزيا
وفي جوار البيت في مكّتهِ
يُحبُّهُ الإمامْ

تُحبُّهُ صبيةٌ
تنضّد العقيق في أفريقيا
يُحبُّهُ مزارعٌ يحفر في نخلته (محمدٌ)
في شاطئ الفرات في ابتسامْ

تُحبُّهُ فلاّحة ملامحُ الصعيد في سحنتها
تَذْكره وهي تذرّ قمحها
لتطعم الحمامْ

يُحبُّهُ مُوَلّهٌ
على جبال الألب والأنديز في زقْروسَ
في جليد القطبِ في تجمّد العظامْ
يذكره مستقبِلاً
تخرج من شفافه الحروفُ في بخارها
تختال في تكبيرة الإحرامْ

تُحبُّهُ صغيرة من القوقازِ
في عيونها الزرقاء مثل بركةٍ
يسرح في ضفافها اليمامْ

يُحبُّهُ مشرّد مُسترجعٌ
ينظر من خيمتهِ
لبائس الخيامْ

تُحبُّهُ أرملةٌ تبلل الرغيفَ من دموعها
في ليلةِ الصيامْ

تُحبُّهُ تلميذةٌ (شطّورةٌ) في (عين أزال) عندنا
تكتب في دفترها:
"إلا الرسولَ أحمدا
وصحبَه الكرامْ"

وتسأل الدميةَ في أحضانها:
تَهوينَهُ ؟
تَهزها من رأسها لكي تقول: إي نعمْ
وبعدها تنامْ.

يُحبُّهُ الحمام في قبابهِ
يطير في ارتفاعة الأذانُ في أسرابهِ
ليدهش الأنظارْ

تُحبُّهُ منابرٌ حطّمها الغزاةُ في آهاتها
في بصرة العراقِ
أو في غَروزَني
أو غزةِ الحصارْ

يُحبُّهُ من عبَدَ الأحجارَ في ضلالهِ
وبعدها كسّرها وعلَّق الفؤوسَ في رِقابهاَ
وخلفه استدارْ
لعالم الأنوارْ
يُحبُّهُ لأنّه أخرجَه من معبد الأحجارْ
لمسجدِ القهارْ

يُحبُّهُ من يُكثر الأسفارْ
يراه في تكسُّر الأهوار والأمواجِ في البحارْ
يراه في أجوائه مهيمنا
فيرسل العيونَ في اندهاشها
ويرسل الشفاهَ في همْساتها:
"الله يا قهار!"

وشاعرٌ يُحبُّهُ
يعصره في ليله الإلهامُ في رهبتهِ
فتشرقُ العيونُ والشفاهُ بالأنوارْ
فتولد الأشعارْ
ضوئيةَ العيونِ في مديحهِ
من عسجدٍ حروفُها
ونقَّطَ الحروف في جمالها
كأنها أقمارْ

يُحبُّهُ في غربة الأوطان في ضياعها الثوارْ
يستخرجون سيفَهُ من غمدهِ
لينصروا الضعيفَ في ارتجافهِ
ويقطعوا الأسلاكَ في دوائر الحصارْ

تُحبُّهُ صبيةٌ تذهب في صويحباتها
لتملأ الجرارْ

تقول في حيائها

"أنقذَنا مِن وأْدِنا"
وتمسحُ الدموع بالخمارْ

تُحبُّهُ نفْسٌ هنا منفوسةٌ
تحفُر في زنزانةٍ
بحرقة الأظفارْ:
" محمدٌ لم يأتِ بالسجون للأحرارْ .."
تنكسر الأظفارُ في نقوشها
ويخجل الجدارْ

تُحبُّهُ قبائلٌ
كانت هنا ظلالها
تدور حول النارْ
ترقص في طبولها وبينها
كؤوسها برغوة تدارْ

قلائد العظام في رقابها
والمعبد الصخريُّ في بخورهِ
همهمة الأحبارْ

تُحبُّهُ لأنهُ
أخرجَها من ليلها
لروعة النهارْ

تُحبُّهُ الصحراءُ في رمالها
ما كانت الصحراءُ
في مضارب الأعرابِ في سباسب القفارْ ؟

ما كانت الصحراء في أوّلها ؟
هل غير لاتٍ وهوًى
والغدرِ بالجوارْ ؟

هل غير سيفٍ جائرٍ
وغارةٍ وثارْ ؟

تُحبُّهُ القلوبُ في نبضاتها
ما كانت القلوبُ في أهوائها من قبلهِ ؟

ليلى وهندا والتي (.....)
مهتوكة الأستارْ
وقربةَ الخمور في تمايلِ الخمّارْ ؟!

تُحبُّهُ الزهور والنجوم والأفعال والأسماء والإعرابُ
والسطور والأقلام والأفكارْ

يُحبُّهُ الجوريّ والنسرين والنوارْ

يُحبُّهُ النخيلُ والصفصافُ والعرعارْ

يُحبُّهُ الهواء والخريفُ والرمادُ والتراب والغبارْ

تُحبُّهُ البهائمُ العجماء في رحمتهِ
يُحبُّهُ الكفارْ

لكنهم يكابرون حبّهُ
ويدفنون الحب في جوانحِ الأسرارْ

تُحبُّهُ
يُحبُّهُ
نُحبه
لأننا نستنشقُ الهواء من أنفاسهِ
ودورةُ الدماء في عروقنا
من قلبه الكبيرِ في عروقنا تُدارْ

نحبهُ
لأنه الهواءُ والأنفاس
والنبضات والعيون والأرواح والأعمارْ

نحبه لأنه بجملة بسيطة:
من أروعِ الأقدار في حياتنا
من أروعِ الأقدارْ

ونحن في إسلامنا عقيدةً
نسلّم القلوب للأقدارْ !!
***
شعر محمد جربوعة/ الجزائر